GJAT | JULY 2024 | pp 193-207
ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

التناص: تحولات الشعرية البلاغية إلى الوظيفة النسقية

Intertextuality: Transformations of Poetic Rhetoric into the Systemic Function

Daad Rashrash Alnaser
Department of Arabic Language & Literature
United Arab Emirates University (UAEU)
P.O. Box 15551, Al Ain, Abu Dhabi, United Arab Emirates
Tel: 00971563366136 Email: daad-alnaser@uaeu.ac.ae

ملخص

تدور الدراسة في فلك التناص من حيث تعالقاته النسقية مع النقد الثقافي؛ حيث تفترض أن لهذا الأسلوب البلاغي قدرة إبلاغية تتجاوز الأبعاد التداولية التي ترتكز على إظهار شعرية التناص، وقدرته على الإبانة الفكرية للنص، وذلك من خلال استحداث وظيفة جديدة له هي الوظيفة النسقية التي ترتبط بالنقد الثقافي أساسا، وتنهض على أدوات إجرائية من شأنها خلق الحيلة الثقافية التي يمرر من خلالها المعنى العميق الذي جعله شتراوس في الثنائية الخفية للمعنى، ورسمه إيسابيرجر في البنية التحتية للنص. تتبعت الدراسة إمكان تجلي هذه الوظيفة في البلاغة العربية، ونظرية التناص الغربية، فلم تجد لها أثرا واضحا، وعلى ذلك فإنها تفترض علميا حضور هذه الوظيفة الجديدة للتناص، وتبرهن عليها من خلال دراسة تطبيقية على نص إبداعي من العصر العباسي هو رسالة سهل بن هارون في البخل. وقد خلص البحث بعد الدراسة المتأنية إلى نتائج: فللتناص –الأسلوب البلاغي المعروف في الثقافتين العربية والأجنبية– وظيفة تداولية مشهورة تتعلق بالإثراء الجمالي والفكري للنص المتعالق مع الاقتباسات المنوعة؛ ويمكن استثمار التناص في الدراسات النقدية الثقافية، من خلال التأسيس للوظيفة النسقية التي يتمتع بها؛ وعلى ضوء قراءة التناص قراءة نسقية في رسالة سهل بن هارون في البخل، تبين أن الكاتب ناهض صورة العرب بقلب سمة الكرم، وجعلها في سلم أخلاقي متدن. لذا، توصي الدراسة بتتبع مباحث البلاغة العربية، ودراستها ضمن رؤية جديدة، لتكون أدوات إجرائية فاعلة تبني النقد الثقافي.

الكلمات المفتاحية: التناص؛ البلاغة؛ النقد الثقافي؛ النسقية

Abstract

The study revolves around the intertextuality orbit in terms of its systemic attachment with cultural critique, where this rhetoric approach assumes a rhetoric capacity that exceeds the deliberative dimensions which are based on showing the poetic aspect of intertextuality and its ability to express the ideas of the text and that is done through creating a new post for it. This post is known as the systemic post and is originally associated with cultural critique and is based on procedural tools designed to create the cultural trick through which the profound meaning is passed. The meaning which Strauss added to the hidden meaning and Iceberger drafted in the underlying structure of the text. The study followed the possibility of this post manifesting itself in Arabic rhetoric and the western intertextuality theory, and did not find a clear impact. Therefore, it assumes that this post is new to intertextuality and this assumption is proven

ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

by an applied study which has been conducted on a creative text from the Abbasid Era. This text is Sahl bin Haroun's letter on stinginess. The research concluded after careful study with results: intertextuality - the rhetorical device known in both Arab and foreign cultures - has a well-known pragmatic function related to the aesthetic and intellectual enrichment of the text linked with various quotations; intertextuality can be utilized in cultural critical studies by establishing the systemic function it possesses. In light of a systemic reading of intertextuality in the message of Sahl ibn Harun on miserliness, it became evident that the writer challenged the image of Arabs by reversing the trait of generosity and placed it on a low moral scale. Therefore, The study recommends following Arabic rhetoric research and studying it within a new vision so that the procedural tools are effective in adopting cultural critique.

Keywords: *Intertextuality; Rhetoric; Cultural Critique; Systemic*

مقدمة

اكتنزت الأدبيات البلاغية التراثية بالسياقات النصية التي تناولت موضوع "التناص" –وإن تجلى بتعريفات تراثية أخرى ولكن تحيل إليه– حيث وقفت بشكل دقيق على المصطلحات التي تعرّفه، والأنماط التي تشكله. وقد رأته فعلا أدبيا لازما لا سيما في الخطابات العامة التي يعرض لها الأدباء وسمّته "المشترك العام"، وناقشت أخلاقية التناص فيما عدا ذلك مراوحة بين القبول والرفض، الأمر الذي سوغ لها إطلاق اصطلاح "السرقات الشعرية" لتدلل به على موقفها الأخلاقي. وفي كل ذلك دارت في فلك التأثر والتأثير، حيث مايزت بين درجات هذا الأثر المتبادل بين نصين: الأول سيتم صهره بعد قليل في نص ثانٍ بتقنية من التقنيات التي تعتمد في دقتها وجمالها على براعة الأديب الذي سيعيد إنتاج النص بصورة ما، حيث تمتد هذه الصورة في سلم تراتبي بين: أدناها وهي التي تفضح هذا التناص وتعلن عنه؛ لجلائه ووضوحه، وأعلاها وهي التي بني فيها التناص على "الخفاء"، و"إلطاف الحيلة"، و"التلبيس"، و"شق الكِمّ".

وقد انبنت على هذه التأصيلات البلاغية دراسات لا يمكن الإحاطة بها لكثرتها، وشدة التوسع فيها، وهي على أهميتها ليست مدار هذا البحث الذي سيوجه عنايته إلى **تعالق التناص مع النقد الثقافي**، على افتراض أن أسلوب التناص يتم توظيفه في كثير من الأدبيات ليكون حامل نسق، وليمارس دور الحيلة الثقافية التي ستعمل على تمرير النسق الثقافي بذكاء. ولعلي أجلّي هذه الشيفرات"الاصطلاحية" التي باتت ملازمة لحقل النقد الثقافي تنظيرا وتطبيقا، بإشارات مكثفة أقصرها على ما أفيد منه في هذا البحث، وهو علاقة التناص بممارسة فعالية النقد الثقافي.

النقد الثقافي نشاط أو ممارسة تستثمر كل الحقول المعرفية، والسياقات الواقعية والحضارية لفضح النصوص والأشكال الفنية والثقافية التي يشتغل عليها، وهذا ما سوغ للنقاد الثقافيين بتعريف هذا المستوى النقدي بـ :"النقد النسقي"، و"النقد المعرفي"، و"النقد الحضاري" (Alimat, 2015)، حيث باتت كل التجليات الرمزية والأدبية التي يصنعها الإنسان مدار النقد، ومحط الحفريات الثقافية التي ستحكم على المنتج الإبداعي، بغض الطرف عن تمثلاته: أدب رسمي أم شعبي، قصيدة أم أغنية، صورة أم ملصقات دعائية إعلانية، ومنحوتات أم رسومات ... ونحوها.

وأعلن النقد الثقافي أنه يبحث أساسا في الأنساق المضمرة التي تخفيها النصوص؛ فالنص يحمل بنيتين من المعنى: بنية ظاهرة، وبنية أخرى مستترة، مما من شأنه أن يحقق تعارضا قويا في المعنى،

ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

هذه التعارضات التي سماها شتراوس ب"الثنائيات"، و"الطابق العلوي والطابق السفلي" كما سماها إيسابيرجر (Isaberger, 2003)، والظاهر الجمالي إزاء الباطن القبيح كما رسمها عبد الله الغذامي. ويتكئ الأدباء ومنتجو الثقافة على تأسيس النسق الخفي لغايات متعددة؛ لعل أبرزها إرادة الخوض فيما لا يستطيعون الإعلان عنه، لما يشكله من تهديد وإقصاء فكري أو بدني، لذلك نجد هذا التخفي لدى الجماعات التي لا حظوة لها في المجتمع: الجماعات المهمشة، وغير المرغوب في أفكارها لا سيما السياسية منها، وفي الأدب العربي يصح انطباق ذلك على الأدب الشعبي غير الرسمي الذي دأب على مناوأة السلطة، من مثل أدب الطفيليين، والمتحامقين، والمجانين، والشطار والعيارين، والصوفية، حيث تحمّلت أدبيات هذه الجماعات بدلالات عريضة خفية، تخالف ظاهرها المضحك، أو الديني المقدس.

أجمع النقاد الثقافيون على أن تأسيس النسق الخفي يتم تحت مظلة شاملة من المراوغة، ويعتمد على كل ما من شأنه أن يجعله قادرا على المخاتلة من أساليب جمالية ومجازية في اللغة وغيرها، وذلك مكفول بالشرط الثقافي لا الجمالي، فإن توظيف كل هذه المجازات لا يقصد منه البتة الترويج للأساليب الفنية البلاغية، بل الترويج الذكي للنسق الذي اضطر للتخفي وعدم التجلي لأسباب غالبا ما تكون سياسية: "ما زال المجاز هو الأساس المبدئي في الفعل النصوصي، غير أن ما يحسن التأكيد عليه هنا هو أن المجاز قيمة ثقافية، وليس قيمة بلاغية جمالية كما هو ظاهر الأمر"(Al-Ghadami, 2005). وهذا يقودنا إلى التساؤل حول آليات هذه المراوغة الثقافية؟ كيف تتم؟ وهل لها تقنيات معروفة معلن عنها؟ بحيث يتكئ عليها منتج النص وناقده في آن معا؟

قادتني القراءات إلى رؤى فضفاضة، تشير إلى "كل" ما من شأنه أن يحقق جدلية الخفاء والتجلي، هكذا بإطلاق يستثمر الأدبي والثقافي، بحيث يكون قادرا على توليد "الحيلة الثقافية" وهي اللعبة التي يُعلن من خلالها نسق يستبطن آخر بالضرورة: "التعليق على النص ونماذجه الثقافية، ويقترح أن نضيف إلى هذه القائمة السيميائيات ووسائل الاتصال، والشفرات الخاصة بالعنصر، والطبقة، والجنوسة، وبالثقافة المرئية والشعبية" (Moussawi, 2005). وفي دراسة هيثم العزام لتجربة الغذامي في حقل النقد الثقافي، يخلص إلى أن هذا النقد: "هو أداة للحفر في جينالوجيا المتن الثقافي الذي تؤلفه الثقافة نفسها، وتسوقه عبر قنوات منها ما يدعى بالحيل الثقافية: الحكايات، والنكت البلاغية ..إلخ" (Al-Azzam, 2014) . ويزيد حفناوي بعلي هذا التعميم تأكيدا: "إن مشروع هذا النقد يتجه إلى كشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل خافية، وأهم هذه الحيل هي الحيلة الجمالية التي من تحتها يجري تمرير أخطر الأنساق وأشدها تحكما فينا.. نقول إذن إن التورية مصطلح جوهري من حيث إن الخطابات والأنماط الثقافية والسلوكيات هي تورية ثقافية، فيها المعنى القريب والمعنى البعيد.." (Baali, 2007). وأكتفي أخيرا بالإشارات اللطيفة التي أوردها يوسف عليمات وهو يؤسس لمصطلح "النقد النسقي" حيث نختبر: "الصيغ، والتمثيلات، والشيفرات الثقافية في البنى النصية. إذ يتسم النسق من حيث هو نظام بالمخاتلة، واستثمار الجمالي والمجازي؛ ليمرر جدلياته ومضمراته التي لا تنكشف إلا بالقراءة الفاحصة"(Alimat, 2015) .

أبدع يوسف عليمات في الوقوف على البلاغي الذي يمكن أن يشارك في اللعبة النسقية؛ وذلك من خلال دراسته شعرية الضد في الأدب الجاهلي حيث قامت دراسته على: "قراءة المحمولات الثقافية للنسق في القصيدة الجاهلية في إطار شعرية الضد.." (Alimat, 2004)، وهذا الإعلان هو أقرب عمل منهجي

ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

تتصل به دراستي التي تحاول سؤال الأساليب البلاغية العربية التي يمكن تفعيلها إجرائيا لتكون أدوات فاعلة في النقد الثقافي. واقترب عبد الرزاق مصباحي من البلاغة العربية –كما العديد من النقاد– بوصفها أداة مركزية في توليد الأساليب التي يمكن أن تؤدي دور الحيلة الثقافية، ولكنا نسجل له سكه مصطلح "البليغ الثقافي"، في تأكيد واضح على أن منطلق القراءة هو النص، وأنظمة الإفصاح النصوصي التي قرأناها في أدبيات بارت، وفوكو، ودريدا الذي أكد على أنه "لا شيء خارج النص، وهي مقولة يصفها ليتش بأنها البروتوكول للنقد الثقافي الما بعد بنيوي.." (Baali, 2007). ففي سياق الحديث عن شعرية محمود درويش، يرى المصباحي أن: البلاغي والجمالي ليسا ترفا شكليا، وإنما يحضران ليؤشرا على الأبعاد الثقافية ونسقية الخطاب (Al-Mesbahi, 2015). وقد كنت أرجو أن أجد بعد هذا المصطلح الجديد الواضح تجليات بلاغية يمكن أن يسند إليها دور اللعب الثقافي أكثر من غيرها، لما تحتمله من إمكانات التلون، وإظهار معنيين: قريب وبعيد، ولكني لم أجد، وبرغم من ذلك فإن هذا المصطلح يشكل إضاءة مهمة في لفت الأنظار إلى الأسلوبية البلاغية التي يمكن أن تقوم بهذا الدور النسقي.

حضرت مصطلحات كثيرة في العرض أعلاه، تشير إلى: الحيلة الثقافية، والمجاز، والجمالي، والبلاغة، والنكت البلاغية، والتورية، والسيميائيات، والشيفرة الثقافية، والصيغ، والتمثيلات، وكلها يدور في حقل النصي الذي من شأنه أن يؤسس للنسقي المضمر، وهي إشارات بالغة الأهمية، إلا أن السؤال الذي يظل عالقا هو: كيف يمكن تأسيس هذه الحيل والمجازات؛ لتؤدي الدور الذي أنيط بها، وأقصد به الدور الثقافي، وبناء النسق المضمر ذي الدلالة الخفية؟ وهذا ما سينهد إليه هذا البحث من خلال الخوض في أداة أسلوبية بلاغية تم تصنيفها في قسم البديعيات، وهي "تقنية التناص" التي ورثناها عن البلاغة العربية بمسميات مختلفة كالسرقات الشعرية، ليكون البحث تمهيدا لسلسلة من الأبحاث والقراءات التي تقف على تقنيات بلاغية خاصة، قادرة على التلون النسقي أكثر من غيرها، بمعنى أنها قادرة على التورية والتخفي، وعناصرها بالضرورة حاضرة بل متعددة في البلاغة العربية.

كشف العرض أعلاه عن افتراض علمي بلاغي يرى في التناص قدرة على تشكيل النسق، ليدخل حقل النقد الثقافي من أوسع أبوابه، بوصفه أداة إجرائية يمكن أن يعتمد عليها الأديب في تشكيلاته الأدبية النسقية، كما يتكئ عليها الناقد الثقافي لإدراك مواطن الحيل المراوغة التي تم تمريرها عبر الجمالي المجازي الذي هو التناص. ويجدر بي هنا التنويه على أن هذه الدراسة لا تبحث عن النقد الثقافي في البلاغة العربية أو التناص الحديث كما أسست له جوليا كريستيفا من حيث: المصطلحات، والأدوات التحليلية؛ فالنقد الثقافي متأخر عنهما من حيث تأسيسه التنظيمي، ولكن الدراسة تبحث عن تجليات فكرة الوظيفة النسقية التي يمكن أن تحضر في الأدبيات البلاغية العربية والحديثة الأجنبية، بمعنى: الوعي بهذه الوظيفة، والاقتراب منها تأصيليا أو تطبيقيا، وضمن الرؤى التي تناسب تلك العصور.
على ضوء هذا الافتراض، يفترع البحث عددا من الأسئلة والعنوانات التي يمكن أن تجلّي هذا الافتراض، وضمن مساحة واسعة تشمل المنجز العربي والغربي لتكون إطلالتنا على المبحث أشمل وأدق:

- هل كان البلاغيون العرب واعين بوظيفة التناص التي من شأنها أن تضمر الذي لا تعلنه؟
- هل حضر الوعي بالقيمة الوظيفية النسقية للتناص في الأدبيات النقدية الحديثة؟
- إجرائيا، كيف يمكن للتناص أن ينهض بهذه الوظيفة الثقافية؟

ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

وقد بُنت هذه الأسئلة العناوين التالية التي ستدور في فلك النقد الثقافي، وتحاور التناص من زاويته:

- التناص في البلاغة العربية: الوظيفة النسقية بين التجلي والغياب.
- التناص في النقد الحديث: الوعي بمنجزه النسقي.
- التناص الثقافي: دراسة تطبيقية.

التناص في البلاغة العربية: الوظيفة النسقية بين التجلي والغياب

هل سجلت البلاغة العربية اعترافها بحضور وظيفة ما لسرديات التناص، وظيفة من شأنها أن تسوّغ تشكّل التناص أداة من أدواتها الإبلاغية؟ إن هذا السؤال يولّد مدخلا جيدا للبحث عن الوظيفة الخاصة التي يسعى البحث إلى الكشف عنها وهي الوظيفة النسقية: هل تمت الإشارة إليها؟ تعريفها؟ تنميطها؟ أم غابت مطلقا عن المؤلفات البلاغية التراثية فلم تحظَ بالحضور. إن قراءة استقصائية لأبرز مؤلفات المرحلة يمكن أن تشكل وعيا بالإجابة التي أختزلها ضمن المفاصل التالية:

1. في التعريف العام والموقف الأخلاقي والشرعي

أثث البلاغيون مصطلح "السرقات الشعرية"، وعرفوها بكونها: "تناول الشاعر المعاني التي سبق إليها" (Al-Alawi, 2005). وهذا مصطلح تم تحميله دلالات أخلاقية واضحة؛ ليكون أخذا مذموما في حالات، ومشروعا في أخر حال تبرئه من "الأخذ" المذموم: فالشاعر سارق مكروه في ممارسته "السرقة المحضة" إذا أخذ اللفظ كله من غير تغيير لنظمه، وهو ما يسمى بـ: "النسخ والانتحال"، أو إن غيّر اللفظ ولكن دون تجويد، وحينها يدخل في باب "الإغارة والمسخ". أما إن مارس الشاعر أو الأديب تغييرا ذكيا كأن "ينقل" المعنى المأخوذ إلى آخر، أو "يقلبه" ليكون المعنى الثاني مناقضا للأول، أو "يجتزئه" فيأخذ جزءا من المعنى ويضيف إليه ما يحسنه، وما إلى ذلك من حسن التصرف الذي ينقل هذا الأداء من "قبيل الاتباع إلى حيز الابتداع"، فهو أخذ مشروع محبب، ولا يعتبر سرقة مذمومة في حق الشاعر (Taftazani, 2013).

ومما يتصل في معنى "الأخذ" مصطلح الاقتباس، ويكون إذا ضمّن الأديب "شيئا من القرآن أو الحديث لا على أنه منه" (Taftazani, 2015)، وقد اتخذ بعض العلماء والبلاغيين موقفا شرعيا منه: فقد اشتهر عن المالكية تحريمه، في حين سكت الشافعية عنه، ورأى السيد علي المدني جوازه في مقامات الوعظ، والثناء، والدعاء، وكل ذلك مشروط –في أقوال عدة– بأن يكون في النثر لا في الشعر، وقد أقر صاحب أنوار الربيع في فائدة مهمة بعد أن استعرض عددا من أقوال العلماء في هذا الحقل أن الرأي الصحيح هو: "أن المقتبس ليس بقرآن حقيقة بل كلام يماثله، بدليل جواز النقل عن معناه الأصلي.. وذلك في القرآن كفر" (Al-Madani, 1968).

2. في الأنواع الأسلوبية

أشارت الفقرتان أعلاه إلى عدد من الأنواع التي صنفها البلاغيون في مبدأ "الأخذ" أي التعالق بين نص وآخر، وقد سقت هذه الأنواع بشكل مكثف؛ لارتباطها الوثيق بالموقف الأخلاقي والشرعي الذي رغبت أن أوضحه، إلا أن الأنماط الأسلوبية التي أقرها البلاغيون لهذا المبحث البديعي أوسع بكثير مما ذكر، وكلها يتكئ بشكل مركزي على آلية الأخذ وتقنياته المعتبرة: هل أخذ الشاعر اللفظ أم المعنى أم كليهما؟ هل حوّر وغير، أم التزم؟ هل أضاف وغيّر مجودا أم مسيئا؟ بمعنى أدق هل كان متبعا فقيرا، أم مبتدعا لطيف الأخذ؟ ومن أبلغ ما قيل في هذه التلونات التي تثبت براعة أديب أو تنزعها عنه في باب التناص ما قاله يحيى اليماني في كتابه الطراز: "يختلف حال الأخذ، فتارة يكون جيدا مليحا، وتارة يكون رديئا قبيحا، على قدر جودة الذكاء، والفطنة، والفصاحة بين الشاعرين.. فمن

ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

الشعراء من يأخذ كرة وبعرة، ويرده ياقوتة ودرة، ومن الناس من يأخذه ديباجة، ويرده عباءة، إلى غير ذلك من الأمثال في النقائض، والأضداد في الأخذ والرد" (Al-Yamani, 2010). وحيث إن هذه المصطلحات شائعة، والقصد من إيرادها هو التعرف إلى منهجية البلاغيين في التعامل مع التناص، وصولا إلى وعيهم بالوظيفة النسقية، فإنني سأعرض بعجالة إلى أبرز المصطلحات المرتبطة به دون تطويل:

- الاحتذاء، ومنه ما هو جلي وخفي، وتعريفه: أن يبتدئ الشاعر في معنى له وغرض، فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به في شعره (Shadi, 2013).
- التضمين: "أن يضمن الشعر شيئا من شعر الغير، مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورا عند البلغاء..." (Taftazani, 2013).
- العقد: "أن يُنظم نثر لا على طريق الاقتباس". وعكسه: الحلّ: وهو "أن يُنثر نظم" (Taftazani, 2013).
- التلميح: "أن يُشار إلى قصة أو شعر من غير ذكره" (Taftazani,2013).
- النسخ: "إن أحد الشاعرين يأخذ معنى صاحبه وينقله إلى تأليف آخر" (Al-Yamani, 2010).
- السلخ: "وهو أخذ بعض المعنى، ولا تعويل فيه على إيراد اللفظ" (Al-Yamani,2010).
- المسخ: "وهو إحالة المعنى إلى ما هو دونه" (Al-Yamani,2010).
- عكس المعنى: "وما هذا حاله فهو بالغ في المجد كل مبلغ، ومن لطافته، ورقته، ورشاقته يكاد يخرجه عن حد السرقة" (Al-Yamani,2010).

تشفّ المصطلحات التي سيقت عن توجه البلاغيين إلى تشظية الألوان الأسلوبية للتناص، فكلها يرتد إلى مفهوم "التعالق" بين نصين، إلا أن العقلية العلمية الدقيقة التي تمتع بها هؤلاء البلاغيون دعتهم لهذا التفصيل المعتمد أساسا على تقنيات "الأخذ" وطرقه المتبعة، والأثر الجمالي الذي يحدثه في المتلقي، وهذا يدخلنا في إطار الوظيفة الجمالية المتحققة في جانبين: براعة الشاعر وقدرته الخلاقة على تطويع النص وتطويره، والمتلقي الذي يتعرض لهذه التناصات بدهشة وحيرة.

3. الوظيفة الجمالية

تمركز تحققها في إطار "التخفي" و"تلبيس" المعنى المتعالق معه على المتلقي، حتى يكاد لا يهتدي إليه، إلا بعد طول تفتيش ومثاقفة، الأمر الذي يشكل تحديا واضحا في جانبي الإنتاج وتلقيه معا، إن هذا الشرط المعياري يصعّد من المستوى البلاغي والإبلاغي الذي أنيط أداؤه بالأديب البارع، القادر على التعامل الخلاق مع اللغة، وبسط المعنى في إطار من الإدهاش وتثوير المتلقي العالم نفسيا وفكريا ليتلقى الإبداع بصورة خلاقة كذلك. إن ثيمة التخفي واضحة في العديد من السرديات البلاغية محل الدراسة، تعلن عن نفسها بوضوح لتكون عيارا بيّنا يجب الأخذ به لتحقيق الشعرية المميزة التي تدرك كيف تتعاطى مع النصوص الأخرى، حتى تخلّق من نصها مثالا لا يُدانى.

ذكر ابن طباطبا هذه التقنية التي تتقن المواربة، وتدل على أداء شعري مميز: "ويحتاج من سلك هذه السبيل إلى إلطاف الحيلة، وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها، وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها، وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها... ويكون ذلك كالصائغ الذي يذيب الذهب والفضة المصوغين، فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه" (Al-Alawi, 2005) . وجعل الجرجاني هذا الخفاء المعنوي الذي حكم عليه بالبراعة في حجاب يُحتاج إلى خرقه، وكِمّ يُفتقر إلى شقه بالتفكر، ودرّ في البحر يجب تكلف الغوص لإخراجه، هو المعنى الممتنع في شاهق لا يناله إلا من يتجشم الصعود إليه،

ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

والكامن كالنار في الزند لا نجتليها حتى يقتدح، إن الجرجاني يطالب المتلقي بعرق الجبين حتى يتمكن من إدراك كل هذا التخفي! (Al-Jurjani, 2014). وقد وصل الشغف بهذا التخفي وقيمه الجمالية أن حظره أبو الطاهر البغدادي على من لا يستطيعه، فمنع الشاعر الذي لا يمتلك أدواته، ولا يقدر على التحوير الذكي أن يقترب من التناص، حتى لا يكون في حكم البليد والعادي: "وكما أنه مطلق لمن لطف في أخذ المعنى، فكذلك هو محظور على من لم يكن فيه آلة الأخذ أن يطُورَ به -يقترب منه- لأن الحاذق والبارع يخفي دبيبه إلى الشيء حتى يستخرجه، والمتخلف البليد يظهر تسوره على الأمر إذا أراده" (Al-Baghdadi, 1980). وأعلن التفتازاني القاعدة العامة التي تحكم السياق تاما في مقولة: وكلما كان أشد خفاء كان أقرب إلى القبول (Taftazani, 2013).

فهل يقترب هذا التخفي التناصيّ الذي آثره البلغاء والنقاد من فكرة النسق المختفي في عباءة الجمالي؟ هل يمكن اعتبار الخفاء والتلبيس الأسلوبي الذي أكده البلاغيون وراهنوا على تحقيقه أنموذج الأديب "الحاذق"، من جنس التعارضات الثنائية، حيث يظهر النص خطابا، ويستبطن نسقا آخر خفيا يستعصي الاستعلان به؟ الحقّ أنهما لا يتعالقان، فكلّ منهما له أدواته ووظائفه المتباينة؛ فالخفاء التناصيّ كما عرضته البلاغة العربية يقع بين نصين: أول سيؤخذ منه، وثانٍ سيستثمره بدرجة عالية من التحوير، هذا يعني أن الشاعر قد يحتفظ بالمعنى العميق الذي أثثه النص الأول، ولكن سيتم عرضه بصورة لا توحي بهذا الانتماء الفكري والجمالي، أي: سيتقاطع المعنى في حين تختلف الأداة الأسلوبية، وسأقدم مثالا على ذلك مما عرضه ابن طباطبا في العيار، بعد أن تحدث عن ضرورة "إلطاف الحيلة" و"التلبيس"، و"الخفاء" حتى على النقاد والبصراء:

"من ذلك أن عطاء بن صيفي الثقفي دخل على يزيد بن معاوية فعزاه عن أبيه، وهنأه بالخلافة، وهو أول من عزى وهنأ في مقام واحد، فقال: "أصبحت رزيت خليفة الله، وأعطيت خلافة الله، قضى معاوية نحبه فيغفر الله ذنبه، ووليت الرياسة وكنت أحق بالسياسة، فاشكر الله على عظيم العطية، واحتسب عند الله جليل الرزية، وأعظم الله في معاوية أجرك، وأجزل على الخلافة عونك". فأخذه أبو دلامة فقال يرثي المنصور ويمدح المهدي (Al-Alawi, 2005):

عيناي واحدة تُرى مسرورة
بإمامها جذلى وأخرى تذرف
تبكي وتضحك تارة يسوؤها
ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة أولا
ويسرها أن قام هذا الأرأف
ما إن سمعت ولا رأيت كما أرى
شعرا أرجله وآخر أنتف
هلك الخليفة يال أمة أحمد
وأتاكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة
ولذاك جنات النعيم وزخرف
فابكوا لمصرع خيركم ووليكم
واستبشروا بقيام ذا وتشرفوا

وهذا مما لا شك فيه لا يقدم تعارضات في المعنى، ولا يؤسس لاختلافات نسقية، بل يسير النصان: المتناص والمتناص منه في الطريق ذاته من حيث الخطاب، وطرح الفكرة، والمعنى العميق المقول، ثم يتغايران من حيث الأسلوب، وتقنيات التعبير البلاغية. أما الخفاء النسقي فينهد على آلية مختلفة كليا؛ فإن التناص يوظف هنا ليبني فكرة نسقية، ويكون شاهدا عليها، وقد يظهر التناص واضحا جليا أثناء ذلك، أي في أدنى

ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

مستوياته، لكن نسقيته تبقى خافية، وهذا ما سأقف عليه مطولا في الدراسة التطبيقية.

إذن، قدم البلاغيون رؤية وصفية خالصة، عرفوا من خلالها "السرقات الشعرية" وما وقع في فلكها من معاني التأثر والتأثير على الصعيد اللفظي والمعنوي، ثم عرضوا للموقف الأخلاقي والشرعي من هذه الأسلوبية الشائعة في الأدب، ووقفوا حسب على الوظيفة الجمالية دون النص عليها، فقد استطعنا أن نستشفها من خلال الحديث المطول عن ضرورة الخفاء، وكيف يمكن أن يبني الشاعر الرفيع، والعبارة الحاذقة. وقد قبع هذا الخفاء الأسلوبي في دائرة لا تتقاطع البتة مع دائرة المخفي في عباءة الجمالي، أو في الطابق الأدنى دون الطابق الأعلى، بحيث إنه لم يسهم في بناء التعارضات، وعلى ذلك فلا يمكن أن نقول بوعي البلاغة العربية بالوظيفة النسقية التي يمكن للتناص أن يحققها، ويكون أداة إجرائية مهمة من أدواتها.

التناص في النقد الحديث: الوعي بمنجزه النسقي

يفتح العنوان أفق توقع حول مقاربات النقد الغربي لأسلوبية التناص التي بدأنا تلمسها مما يزيد عن المئة عام مع أطروحات فرديناند دوسوسير (ت1913) حول نظرية النص وآليات تشكله، وقد ازداد الوعي بالبنية الداخلية النصية مع مجيء الشكلانيين الروس الذين أعلنوا ضرورة الانطلاق من النص، وتخليصه من قيود الأيدولوجيا وإشكالات الدراسات السياقية التي تسلط الضوء على النص من خارجه، وقد شاركت البنيوية الشكلانيين هذه الرؤية عندما نادت كذلك بموت المؤلف، ودعت للكشف عن النص من زاوية مغلقة تؤمن به دون أي تعالقات خارجية. إن هذه النظرات النقدية التي استمرت في النمو، أفضت إلى تآليف بدأت تنحو نحو الرؤية المتخصصة في التناص، نبدأ الآن بدراسة الروسي ميخائيل باختين المشهورة، التي خاضت في "شعرية ديستوفسكي"، وأعلن فيها ما سماه بـ "الحوارية"؛ ليدلل به على المتعاليات النصية التي تتم بشكل حتمي بين النصوص الأدبية وغيرها، هذا المصطلح الذي تلقفته البلغارية –الفرنسية جوليا كريستفيا وألبسته عباءة "التناص" الاصطلاحية. إن هذه الإشارات التعاقبية لنشوء التناص توضح تلقيا عاليا لأسلوبيته، وعناية خاصة بآلياته التي بدأنا ننفتح عليها في مؤلفات كثيرة، ناقشت: الاصطلاح، والوظائف، والتقنيات، التي سأمر عليها بشكل عجل، وصولا للسؤال المركزي: هل نجد وعيا في هذه المؤلفات بمنجز التناص النسقي كما نفترضه في النقد الثقافي؟

ذكر جينيت أنواعا من المتعاليات التناصية التي يعرفها بـ: كل ما يجعل النص في علاقة ظاهرة أو ضمنية مع نصوص أخرى، موضحا أبرز السمات النوعية التي تفارق بين الأنماط، وقد ظهرت في خطاطة الأطراس كما يأتي:

- التناص: وهو المصطلح الذي أسسته جوليا كريستيفا، وفيه تظهر علاقة تزامن بين نصين أو أكثر عن طريق الاستحضار، ويوضح الكاتب هنا النص الذي أخذ منه بوضوح.
- النصية الواصفة: وفيه تظهر علاقة التفسير والتعليق التي تربط النص بآخر، دون استدعائه أو الاستشهاد به.
- النصية الجامعة: صاحبة العلاقة البكماء التي لا تتقاطع إلا مع إشارة واحدة من النصوص الموازية، وترفض أن تظهر بوضوح، وتتجنب كل انتماء.
- النصية المتفرعة: تصف نصا يشتق من آخر سابق له في الوجود (Alan, 2011).

وكثفت ناتالي بييقي أنماطا متعددة للتناص، وقد تمايزت على ضوء التباين بين آليات البناء وتقنياته العامة، ومما وقفت عليه الباحثة بعد أن أشارت إلى أن المظلة العامة التي تعرف التناص

ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

تكمن في العلاقات المؤسسة على حضور متفاعل بين نصين أو أكثر (Gross, 2012):

- الاستشهاد: ويعتبر واجهة واضحة للتناص، حيث إن المتناصّ يجلي عبر رموز خطية كتوظيف الحروف المائلة، أو علامات التنصيص .. إلخ، طبيعة النص المتناص منه.
- الإحالة: وتشبه الاستشهاد من حيث صراحة بناء كل منهما، إلا أن الإحالة لا تعرض النص الآخر الذي تحيل إليه حرفيا، فتقيم علاقة غياب، تجعل له الأفضلية على الاستشهاد. وهو ما صنفته سليمة عذاوري بـ"الاقتراض" (Azauri, 2012).
- السرقة: تستحضر فقرة دون أن توحي بأنها مأخوذة من نص آخر، ورأت الكاتبة أن ذلك يمثل اعتداء على الملكية الأدبية، وهو نوع من الغش يضع "ذمة" السارق موضع الاتهام.
- التلميح: يشبه الاستشهاد، إلا أنه أكثر خفاء ودقة، حتى يكون التلميح الجيد كالخاتم السحري في أثره على المتلقي!

وقد بين النقد الغربي وظيفة التناص التي تنبني بالضرورة على آليات تشكيله، لذا هي وظائف متنوعة، ويغدو من الصعب حصرها بناء على ذلك. إنّ بارت ينبه إلى "لذة النص" التي تتحقق من خلال التفاعلات والتشعبات التي تحدثها ذاكرة تم تنبيهها من خلال كلمة ما، أو انطباع، أو نصّ معطى (Gross, 2012)، وعلى الجانب التداولي الآخر فإن التناص مقدمة دلالية وأيدلوجية يمكن أن يبرز القيم المعنوية، ويؤشر على المعاني الجديدة التي ترتبط بالتناص الموظف ابتداء لتحقيق هذه الإضافة النوعية (Gross, 2012). ويوقّع التناص من نوع "الاستشهاد" لأثر السلطة، والتماهي، والتزيين، في حين تحقق المحاكاة الساخرة التأثير اللعبي، كما أن التناص يسهم بشكل فاعل في تقرير مميزات الشخصية، كما يحدد مميزات المكان والذاكرة، ويوسع من أفق الأسطورة، والتعالق مع التاريخ (Gross, 2012)، وهكذا، فإن التنوعات اللانهائية للتناص، تستلزم بالضرورة وظائف غير نهائية يمكن تحقيقها اعتمادا على ثقافة الأديب، وقدرته الشعرية.

لا أجد في السرديات المقروءة نصوصا تدل بشكل قاطع على إمكان توليد نسق خفي من خلال تجريب التناص في التجربة الغربية، لكن هناك إشارات غاية في الأهمية تشير إلى إمكان تحقيق التناص قراءة أخرى، قراءة مختلفة متمايزة من النص قبل إنشاء تناصاته، قراءة يمكن أن تكون ضدية منقلبة على المعنى: "إن الاستشهاد حتى وإن كان غير مدرك، لا يقف حائلا دون قراءة النص. من المؤكد أن هذه القراءة تكون مختلفة إذا ما كان تم اكتشاف الاستشهاد، التعرف على تأويله..." (Gross, 2012). في موطن آخر تأكيد على عدم اختزال التناص في مجرد لعبة أسلوبية، إذ إنه يتعدى ذلك لتحقيق الدلالة والأيدلوجية: "إذا ما كان التناص يشمل نقد المصادر، بل يتجاوزه؛ فلأنه أيضا لا يختزله في سلسلة من الاقتراضات لكنه يعتبره وكأنه مقدمة للنص دلالية وأيدلوجية، فالمصدر ليس فقط المبدأ المؤسس والمغذي للعمل، هو استمداد للقيم وللدلالات الجديدة.." (Gross, 2012). ولعل أهم إشارة تفيد إمكان أن يحول التناص الدلالة الأصلية وينقلب عليها هي قول الباحثة في التعليق على بالاي الذي استعار في السونيتة رقم 25 أحد أبيات الشعر لبيتراريك : "ليبارك النهار والشهر والعام"، فقد قلب بالاي دلالتها بشكل كلي حيث حورها من سياق المباركة إلى سياق الشؤم: "أصبح الاحتفال لعنة، فطبقها على سياق مشؤوم "المنفى"، يكون التلميح أكثر حدة لما يتأسس على الوفاء بحرفية النص، وعلى القلب الجذري بمعناه" (Gross, 2012).

ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

إن منطق النسقية ينهد ابتداء على إظهار مستويين من المعنى، مستوى ظاهر يتم تلقيه بصورة واضحة، ومستوى آخر مخاتل يتقن لعبة التخفي، وارتداء الأقنعة، ويفترض هذا البحث أن التناص يُعدّ من أبرز التقنيات القناعية التي يوظفها الأديب ليخفي نسقا فكريا ما كان يستطيع إظهاره، وكان السؤال المركزي هنا: هل أظهرت البلاغة التراثية، أو النقد الحديث وعيا واضحا بهذه الحيلة الثقافية؟ وهل تمّ التعبير عن هذه التقنية بصورة جلية؟ هل تمّ التأصيل لحيلة التناص لتكون صالحة في ميدان النقد الثقافي؟ وبعد الاستعراض العام للتجربتين العربية والغربية –ضمن فلك قراءاتي المطولة– ظهر أن اعتبار التناص كان كبيرا في الحقلين على الصعيد المصطلحي، والأنماط، والوظائف، إلا أن التأصيلات النظرية لم تدفع به لمستوى نقاشه في جدلية الخفاء والتجلي البانية للأنساق الثقافية.

التناص الثقافي: دراسة تطبيقية

ترتكز هذه الدراسة إلى نص إبداعي تم إنتاجه في العصر العباسي؛ إذ توفي صاحبه في 215هـ، وفي ظل وسط اجتماعي وسياسي ظهرت فيه قوتان تبادلتا السلطة: العربية الإسلامية الحاكمة، وإسلامية ذات أصول فارسية تم الاستناد إليها في سبيل الوصول إلى السلطة والحكم، فهي تمارس دورها وإن بتراتبية مراوغة تعلن الانصياع، وتخفي قدرتها النافذة على تسيير إرادتها السياسية. إنه تباين يسوغ بقوة لإدراج النص لغايات درسه في نظرية معرفية تقوم ابتداء على فكرة البناء ذي المستويين المتغايرين.

النص هو: رسالة سهل بن هارون في البخل، وقد وردت في المصادر الأدبية ضمن استهلالات متنوعة، فهي في:

- بخلاء الجاحظ: "رسالة سهل بن هارون أبي محمد بن راهبون، إلى بني عمه من آل راهبون، حين ذموا مذهبه في البخل، وتتبعوا كلامه في الكتب" (Al-Jahiz, 2012).
- وفي زهر الآداب: "ألف سهل بن هارون كتابا يمدح فيه البخل، ويذم الجود؛ ليظهر قدرته على البلاغة، وأهداه للحسن بن سهل في وزارته للمأمون" (Al- Qayrawani, 1953).
- وفي العقد الفريد: "رسالة سهل بن هارون في البخل. بسم الله الرحمن الرحيم..." (Ibn Abd Rabbo, 1983).

وهي استهلالات تجمع على موضوع الرسالة "البخل"، وتمارس اختلافها في علة الكتابة ما بين الاجتماعي "إلى بني عمه"، والأدبي "ليظهر قدرته على البلاغة"، أو السكوت عن هذه العلة فيمارس المتلقي تأويله النصَّ ضمن السياقات التي ظهرت فيه. وقد كُتبت هذه الرسالة بقلم رجل من رجالات الدولة أدين بشعوبيته ومناوأته العرب، وإن انضوى تحت المظلة الإدارية العامة التي قامت بتوظيفه: في فوات الوفيات: "سهل بن هارون بن راهيون الدستميساني، أبو عمر، انتقل إلى البصرة واتصل بخدمة المأمون، وتولى خزانة الحكمة له، وكان حكيما فصيحا شاعرا، فارسي الأصل، شعوبي المذهب، شديد التعصب على العرب..." (Al Ketbi, n.d). وذكر الحصري شعوبيته في إشارة عاجلة دالة: "وكان سهل شعوبيا، والشعوبية فرقة تتعصب على العرب وتنتقصها" (Al-Qayrawani,1953).

تضيء هذه التقدمة مناطق مهمة في التعامل مع نص الرسالة، فموضوع البخل ابتداء هي قضية معلنة تفضح المشكل الاجتماعي أو السياسي بين الطرفين العربي والفارسي، وقد اتكأ عليها كثير من الأدباء لتكون أداة أدبية ظاهرة لبعد سياسي باطني. ثم إن انكشاف شعوبية الكاتب والإقرار بها ستسمّح بقراءة النص على ضوء التلاعب الأدبي والحيل الثقافية، لا سيما أن الرجل مصنف في دائرة موظفي الدولة، الأمر الذي يجعل إعلان مذهبه الفكري صعبا. وهنا تظهر قراءة أخرى لاستهلال

ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

ابن عبد ربه الذي عرّف الرسالة بوصفه إبلاغا إلى بني العم، فهل بنو العم من آل راهبون؟ أم أن المتلقي الحقيقي هم العرب الذين ما كان الكاتب يستطيع الاستعلان بعداوتهم؟ إن الإشارة إلى بني العم جاءت من لفظ الجاحظ، وليس من صلب الرسالة، كما أن عددا من المصادر التي أتت على ذكر الرسالة لم تأت على ذكر المرسل إليه، فكأنها بذلك بلاغ عام في البخل، يصح أن يخوض في العرب، ويتهم العقلية العربية في نسيجها الاجتماعي الذي يمكن أن يمتد على مساحات أخر على رأسها النسيج السياسي. إن هذه الإشارات السياقية التي جاءت من خارج الأفق النصي مدعومة بقراءة داخلية للنص، ستتكئ بشكل أساس على أسلوبية التناص الذي يحضر هنا بوصفه حامل نسق، كما سيتبين بعد قليل.

وأرغب أن ندخل أفق التحليل الثقافي للتناص من فضاء ضحى الإسلام لأحمد أمين الذي أقر الكاتب فيه الحاجة الملحة لتخفّي شعوبية رجالات الدولة، واتخاذهم منحى آخر في العداوة، تغاير ما فعله صغار القوم، ليكون هذا المدخل إشارة أخرى مهمة تجعل من القراءة الثقافية لرسالة سهل بن هارون منطقية، بل ضرورية: "يذهب ابن قتيبة إلى أن الذين اعتنقوا الشعوبية هم سفلة الناس وغوغاؤهم.. أما الأشراف فكانت حركتهم سرية خفية، لا يجرؤون أن يظهروا بها لكبر مراكزهم، وخشية من الشك فيهم عند الخلفاء، فهم يؤيدون من وراء حجاب هذه الحركة –ثم يذكر مثالا على ما ذهب إليه من مذهب سهل بن هارون– وكذلك سهل بن هارون صاحب بيت الحكمة، قال فيه ابن النديم: "كان حكيما فصيحا شاعرا، فارسي الأصل، شعوبي المذهب، شديد العصبية على العرب، وله في ذلك كتب كثيرة" وقد وضع رسالته المشهورة في البخل، ولعل ذلك منه نزعة شعوبية؛ لأن العرب كانوا يتمدحون كثيرا بالكرم، ويعدونه من أكبر مناقبهم، كما اشتهر الفرس بالبخل، فوضع سهل هذه الرسالة يقلب فيها قيمة الكرم والبخل، ويعد الكرم رذيلة، والبخل فضيلة..." (Amin,2012) . وهذا الرأي الذي التفت إليه ابن قتيبة، وأشار إليه أحمد أمين يدعو بذكاء إلى الالتفات الثقافي لمثل هذه النصوص التي تعلن غير ما تبطن، وتلح على ضرورة قراءة النصوص الإبداعية والفكرية قراءة واعية بصيرة، تكشف عن أهمية الحفر العميق في المنتج الثقافي.

تجاوز سهل بن هارون ما قاله أحمد أمين في قلب القيمة، حين تغيت الرسالة عدّ الكرم رذيلة، والبخل فضيلة، إلى درجة أرفع من التشويه تكمن في نزع فضيلة الكرم عن العرب، وتجريدهم من صفة أخلاقية شهيرة توارثوها جيلا عن جيل، وذلك حين جعل الاستشهاد على البخل من قاموس العرب، ومن حكمهم وأمثالهم، ومما تداولوه في منطقهم المعيشي، وفي حكمهم على الرجال... إلخ. إن التناصات العديدة التي اكتنزت بها رسالة البخل محلّ الدراسة لم تكن من حكماء فارس، ولم تنطلق من أدبياتهم، وإنما جعلها الكاتب من البيئة العربية؛ لغاية كبرى غير احتجاجية على مذهبه الظاهر، وإنما لتجريد القيمة لا قلبها، وفي هذا محاولة للتشويه، وبناء نسقية مغايرة، تناهض ما عُرف من علم التاريخ الاجتماعي الذي رسم صورة واضحة للعرب، قوامها الكرم، ومجموعة أخلاقية باتت لازمة لهم. فكيف لعب التناص هذا الدور النسقي؟ وكيف وصل بالمتلقي إلى إعادة التشكيل الصوري للثقافة العربية؟

تعالقت هذه الرسالة التي تؤثث لمنطق البخل، وتعيد بناء الصورة العربية في ضوئه مع ما يربو عن عشرين موضعا نصيا، وكانت هذه التناصات لرجالات عربية مشهورة في الحكم الإسلامي، والثقافة العربية، من أبرزها: الخليفة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–، والحسن البصري، وسعدى بنت عوف، وزياد، والأحنف، وعمرو بن العاص، ومعاوية، وابن سيرين، وزيد بن جبلة، ويحيى بن خالد، والحصين بن المنذر، وأبو بكر الصديق الخليفة –رضي الله عنه–، وهشام....

ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

وقد اتكأ سهل بن هارون على تقنية واضحة من تقنيات التناص هي: الاستشهاد كما وضحته ناتالي بييقي "الذي يعتبر واجهة واضحة للتناص، حيث إن المتناصّ يجلي عبر رموز خطية كتوظيف الحروف المائلة، أو علامات التنصيص... طبيعة النص المتناص منه" (Gross, 2012)، أو نوع التناص الذي أسست له كريستيفا، وأوضحه جيرار جينيت في الأطراس، حيث "تظهر علاقة تزامن بين نصين أو أكثر عن طريق الاستحضار، ويوضح الكاتب هنا النص الذي أخذ منه بوضوح" (Alan, 2011)، فقد درج سهل على الإتيان بالقضية، ثم الاستشهاد عليها، من مثل:

- "عبتموني بقولي لخادمي: أجيدي عجنه خميرا، كما أجدته فطيرا... وقد قال عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– لأهله: أملكوا العجين؛ فإنه أربع الطحنتين.
- وعبتموني حين قلت: لا يغترن أحد بطول عمره، وتقوس ظهره، ورقة عظمه.. ولا يحرجه ذلك إلى إخراج ماله من يديه، وقد قال عمرو بن العاص: اعمل لدنياك عمل من يعيش أبدا، واعمل لآخرتك عمل من يموت غدا.
- وزعمت أن كسب الحلال مضمن بالإنفاق في الحلال، وأن الخبيث ينزع إلى الخبيث.. فعبتم علي، وقد قال معاوية: لم أر تبذيرا قط إلا وإلى جانبه حق مضيع. وقال الحسن: إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب ماله، فانظروا في أي شيء ينفقه؟" .. وهكذا (Al-Jahiz, 2012).

وهنا أسجل سؤالا مركزيا، من شأنه أن يجلّي الحيلة الثقافية التي عمد إليها سهل بن هارون، ويدور حول آلة اختيار هذه التقنية من دونها؟ ألم يؤثث العرب تقنيات بلاغية عديدة في التناص، جعلوا أدناها مرتبة الأكثر وضوحا، بينما على الضفة الأخرى جعلوا التناص الأكثر خفاء هو الأشد لطفا كما رأى ابن طباطبا، والأكثر براعة عند الجرجاني –كما رأينا في عنوان التناص في البلاغة العربية– حتى يجعل التناص في حجاب يحتاج إلى خرقه، فتكون براعته كامنة لا تُجتلى بيسر، ولذا طالب المتلقي بعرق الجبين حتى يتبين تقنية التناص، والمتناص منه، وقد ألقينا ضوءا كاشفا على الفكرة ذاتها من التفتازاني الذي أعلن القاعدة العامة التي تقول: كلما كان التناص أشد خفاء كان أقرب للقبول!

هل كانت هذه التقنيات البلاغية خافية عن سهل بن هارون؟ لا أعتقد ذلك فالرجل معروف في المصادر الأدبية برفعته البلاغية والأدبية، في كتاب فوات الوفيات إعلان عام عن كون سهل حكيما فصيحا شاعرا، الأمر الذي أهّل لأن يكون في خدمة المأمون، وتولي خزانة الحكمة. بل إن الأبلغ من ذلك أن تأليف هذا النص، جاء بشكل مركزي كما قال الحصري؛ ليظهر سهل بن هارون قدرته البلاغية. قد يرد اعتراض مفاده أن سهل بن هارون كان أسبق تاريخيا من البلاغيين المذكورين، فقد توفي عام 215هـ، بينما توفي ابن طباطبا عام 322هـ، والجرجاني عام 471هـ، ولا شك أنني لم أقصد إلى أنه اطلع على هذه الأعمال البلاغية، ولكن القصد يكمن في الإدراك العلمي، والوعي الأدبي بخفاء التناص، وضرورة إلطاف الحيلة فيه، وأن كشفه من خلال النص الواضح المباشر للمتناص منه يفقده قيمته، وهو أمر لا يخفى على المشتغلين من قامات الأدباء كسهل بن هارون.

أدى التناص إذن دور الحيلة الثقافية، فقد تم بناؤه في هذه الرسالة ليكون شيفرة سيميائية قادرة على تمرير جدليات النص، ففي حين استعصى على الكاتب أن يعلن ولاءه لفارسيته دون الخلافة التي وظفته تحت مظلتها السياسية العامة، جنح سهل إلى التورية الثقافية، وقال ما يريد بخفاء ذكي؛ إذ جعل التناصات

ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

التي انكشفت في أبنيتها العامة من حيث النص، والناصّ، القول والقائل، تضطلع بمهمة غير المعلنة، إنه لا يريد الاحتجاج على مذهبه في البخل، قدر ما يريد أن يهدم الصورة المألوفة، ويفكك سيميائية الكرم، لتكون في فلك آخر ينزع الصورة الموروثة، ويجردها من هالتها، فتقبع في دائرة أخرى مغايرة بالكلية، وهكذا قال النص ما يريد، وانبنى في ثنائية ذكية، أو عبر طابقين كما قال شتراوس:

- الطابق العلوي الظاهر، وهو ما عُرفت به الرسالة من كونها نصا أدبيا يمدح قيمة البخل، ويندد بالكرم، وهو دليل واضح على الشعوبية.
- الطابق السفلي، وفيه المقول الذي اعتمد تفكيك الموروث، وأثث في المقابل صورة خاصة تنزع عن العروبة معلما من معالم وجودها الاجتماعي الأخلاقي، حيث تم تجريدها من الكرم، وذلك بجعلها الاحتجاج الأول على البخل، قالت ذلك التناصات العديدة، وقالها رجال معروفون بحكمتهم ومكانتهم العلية في المجتمع العربي الإسلامي.

يفضي بنا هذا التحليل للقول بنسقية التناص، لتكون وظيفة مركزية في تعاطيه الثقافي، حيث نضيف إلى الوظيفة:

- الجمالية، التي تريد تلبيس المعنى، وإدهاش المتلقي كما في البلاغة العربية، وتحقيق لذة النص كما أعلن بارت.
- الأيدلوجية، التي تؤشر على المعنى، وتكون استشهادا موافقا للسلطة، ومحاكاة ساخرة لعبية للمقروء.
- (الوظيفة النسقية– هي الوظيفة المضافة في هذه الدراسة)؛ حيث يؤدي التناص لعبة الحيلة الثقافية، ويكون قادرا على بناء النسق الثقافي، وذلك من خلال وقوعه في البنية التحتية للنص، وحيث يرغب أن يقول بخفاء، ما لا يستطيع الإعلان عنه.

الخاتمة

انطلقت هذه الدراسة من رؤية جديدة للتناص، تفترض علميا أنه يقوم بوظيفة نسقية يمكن استثمارها في باب "النقد الثقافي"، وذلك تجاوزا للوظيفة التداولية المعروفة لهذا الأسلوب البلاغي الذي يحقق بالضرورة أبعاده الجمالية، والفكرية الأيدلوجية. وقد شرع البحث في سبيل إثبات ذلك بالنظر في التناص في الثقافتين العربية والغربية، واهتدى بعد طول القراءة إلى إغناء التناص وظيفته الجمالية، وهي وظيفة مدركة عند العرب في حديثهم عن التضمين ودوره في إلطاف حيلة النص، وتفتيق آياته الإبداعية، وعند الغرب الذين تحدثوا عن لذة النص، وعلى الضفة الأخرى تحدثوا عن وظيفته الفكرية المذهبية، ودوره في الاستشهاد على ما يمرر من قضايا وموضوعات. لم يفترض البحث وجود دلالات بينة على خوض التناص في الوظيفة النسقية لا سيما في البلاغة العربية؛ فالنقد الثقافي نشاط فكري تم استحداث منظومته في القرن العشرين، ولكنه سعى إلى البحث عن تجليات نصية تشير إلى هذه الوظيفة وإن بعيدا عن مصطلحات النقد الثقافي وأدواته، ولم تجد الدراسة بروزا للوظيفة النسقية للتناص في الأدبيات العربية والغربية؛ لذا قامت بتأثيث هذه الوظيفة وإثبات إمكاناتها وقدرتها على الاشتغال في مضمار النقد الثقافي من خلال دراسة تطبيقية انتمت للعصر العباسي، وحاورت منه نصا مخاتلا أضمر بامتياز ما لا يظهر، متكئا أساسا على بلاغة التناص، وهو نص رسالة سهل بن هارون في البخل، هذه الرسالة التي ناقشت التغايرات بين الثقافة العربية والغربية من خلال موضوع الكرم، وحاولت بامتياز تشويه الصورة العربية، وتفكيك أبعادها الأخلاقية بصورة استثنائية، وقد قدر سهل بن هارون البلاغي الشاعر الفصيح الكاتب أن يمرر جدليات النص

ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

من خلال وفرة من التناصات التي أقر بانتمائها لشخصيات عربية مرموقة، مما ساعد في تأسيس رؤية مختلفة قلبت قيمة الكرم العربي إلى البخل، حيث جردت تلك التناصات العرب من الكرم؛ وذلك من خلال جعلها موافقة لمبدأ سهل بن هارون في التعاملات الاقتصادية، وهو مذهب مشهور في البخل. إن إقرار الوظيفة النسقية للتناص، وسحبها لتشتغل في ميدان النقد الثقافي، يسمّح بالدعوة إلى إعادة قراءة البلاغة العربية، واكتشاف المباحث القادرة على التورية، وخلق شيفرات النص السيميائية؛ لتكون بذلك أدوات إجرائية عملية يمكن أن يعتمد عليها الناقد الثقافي في إعادة قراءته النصوص التراثية والحديثة، ولا شك أن البلاغة العربية مكتنزة بهذه المباحث التي يمكن أن تقسم النصوص إلى ثنائيات بارزة، يقبع فيها الأسلوب البلاغي في البنية التحتية التي تخفي بذكاء ما لا يستطيع النص الإعلان عنه، وتشكل من ذاتها حيلا ثقافية، ولعبة نسقية تمرر ما لا يستطيعه القول الظاهر. إن هذه الدراسة بناء على هذه الرؤية مبحث تأسيسي في إثبات قدرة البلاغة العربية على ممارسة هذا الدور الخطير، نرجو أن نجد بعده ما يدعمه، فيؤسس لسلسلة من الأدوات الإجرائية من نسيج البلاغة العربية، تُعتمد في نشاط النقد الثقافي.

References (المراجع)

Al-Ketbi, Mohammed bin Shaker. (n,d). Fawat alwafyat. Beirut: Dar Sader.

Al-Alawi, Muhammad Ahmad bin Tabataba. (2005). Eiar alshier. Beirut: Dar al-Kutub al Eilmia.

Alan, Graham. (2011). Nazariat altanas. Syria: Al-Takween.

Al-Azzam, Haitham Ahmed. (2014). Alnaqd althaqafiu. Jordan: Alwaraaq Lilnashr Waaltawze.

Al-Baghdadi, Muhammad bin Haider. (1980). Qanun Albalaghat Fi Naqd Alnathr Walshaera. Beirut: Muasasat Al-risalati.

Al-Ghadami, Abdullah. (2005). Alnaqd Althaqafii: Qira'at fi al'ansaq althaqafiat Alearabiati. Morocco: Al-markaz Al-Thaqafiu Al-Earabii.

Alimat, Youssef. (2004). Jamaliaat Altahlil Althaqafii: Alshier Aljahili Nmudhajan. Jordan: Al-Muasasah Alarabiah Liddirasat Wa-nnashri.

Alimat, Youssef. (2015). Alnaqd Alnasqiu: Tamthilat alnasaq fi alshier aljahili. Jordan: Al-Ahliat Lilnashr Waltawziei.

Al-Jahiz, Amr bin Bahr. (2012). Albukhala'i. Cairo: Maktabat Al-Usrati, Al-hayyat Al-misriat Al-eamat Lilkitabi.

Al-Jurjani, Abdel-Qaher. (2014). 'Asrar albalaghah. Beirut: Al-maktabat Al-easriati.

Al-Madani, Ali Sadr Al-Din. (1968). 'Anwae alrabie fi 'anwae albadiei. Iraq: Maktbaeat Al-nueman.

Al-Mesbahi, Abdul-Razzaq. (2015). Alnaqd althaqafiu min alnasaq althaqafii 'iilaa al-ruwya althaqafiati. Beirut: Muasasat Al-rihab Al-hadithat lilnashr waltawziei.

Al-Qayrawani, Ibrahim bin Ali Al-Hosary. (1953). Zahar aladab wathamar al'albabu. Egypt: Dar 'iihya' Al-kutub Al-earabiati, Eisaa Al-babi Washarakah.

Al-Yamani, Yahya bin Hamza Al-Alawi. (2010). Altiraz almutadamin li'asrar

ISSN: 2232-0474 I E-ISSN: 2232-0482
http://jurnal.usas.edu.my/gjat/index.php/journal

albalaghat waeulum haqayiq al'iiejazi. Cairo: Dar Al-Hadith.

Amin, Ahmed. (2012). Dahaa al'iislamu. UK: Muasasat Hindawiun.

Azauri, Salima. (2012). Shieriat altanas fi alriwayat Al-earabiati. Cairo: Ruyat Lilnashr Waltawzie.

Baali, Hafnawi. (2007). Madkhal fi nazariat alnaqd althaqafii almuqarani. Algeria: Al-Daar Al-earabiat Lileulum Nashiruna, Wamanshurat Al-iakhtilafi.

Gouda, Sahar Kazem. (2017). Jadaliat al'ansaq almudmarat fi alnaqd althaqafii. Syria: Dar al-Hiwar Lilnashr Waltawzie.

Gross, Peggy Natalie, (2012). Madkhal 'iilaa altanasu. Syria: Dar Ninawaa Lildirasat Walnashr Waltawzie.

Ibn Abd Rabbo, Ahmed bin Muhammad. (1983). Aleaqad alfiridi. Lebanon: Dar al-Kutub Al-eilmia.

Isaberger, Arthur. (2003). Alnaqd althaqafii: tamhid mabdayiyun lilmafahim alrayiysiati. Cairo: Al-majlis Al-aelaa lilthaqafati.

Moussawi, Mohsen Jassim. (2005). Alnazariat walnaqd althaqafiu. Beirut: Al-Muasasat al-Earabiat Lildirasat Walnashr.

Shadi Mohammed. (2013). Sharh dalayil al'iiejazi. Egypt: Dar al-Yaqin Lilnashr Waltawziei, Mansoura.

Taftazani, Saad Eddin. (2013). Mukhtasar alsaeda: sharh talkhis mifta. Beirut: Al-Maktabat al-Easriati.